إما المسيح.. وإما إسرائيل

الشيخ جعفر المهاجر

باسمه تعالى

بعثني إلى تسجيل هذه الأفكار أمور ثلاثة، تواترت والتقت في دائرة واحدة. هي هذا الجو الذي ما يزال معتكراً في بلدنا. من علاماته وأعراضه أن ما يتصل بعقائد، بل ما هو أدنى من عقائد، طوائفه، ما يزال أطوع أداة ليد مثيري الشيطان الذي فرغنا على التو من دفنه، بعد أن كاد يدفننا. في حين أن الحوار الباني بين أديانه ومذاهبه موضوع في مرتبة الممنوعات، أو ما هو بالممنوعات أشبه، فإذا نهض بعبئه فدائي، فلا يصل صوته إلى أبعد من الأذنين منه. على ما يجمع بين أبنائه من إيمان بالله الواحد. الذي وسع كل شيء رحمة. ومن ذلك الذي وسعه عيوب الناس ونقائصهم وما هم في مختلفون.

أول تلك الأمور الثلاثة ورأسها، الاتفاق السياسي الذي وقعه ممثلون عن الكنيسة الكاثوليكية الأم، وآخرون عن (دولة إسرائيل)، في القدس، مقدمة لاعتراف الفاتيكان بـ (إسرائيل). (منها تاريخاً دموياً عمره ألفا عام) على حد ما قاله صحفي في صحيفة يهودية معروفة. وما نشك أن هذا الذي رأيناه وسمعناه ليس إلا من جبل ثلج كبير. بدأت تبرز أجزاءه العليا من تحت الماء. أما حياكة خيوط الاتفاق فلم تبدأ بهذه المفاوضات، ما شرعوا به سراً، وما انتهوا به إعلاناً، بل منذ عقود كثيرة. منذ أن بدأ اليهود يغزون العقل البشري والسوق والجسم السياسي الغربي. أي منظومة الأفكار ومنظومة المصالح. تهيئة للحظات لامعة يحددون فيها ما زرعوه في سنين. وما من شك أن يوم 31 كانون الأول 1993 كان واحدة من تلك اللحظات. إذن فالتسلل إلى إدارة الكنيسة لم يبدأ في جسمها الخاص. بل عبر جسدها الكبير ومداهما الحيوي، الذي يحيط بها مادياً وتحتضنه معنوياً. وعبر اللغة التي تؤثر في كل طرف من أطرافه وناحية من نواحيه. المال بالمال وأكثر. والسياسة بالدسائس. والعقول بهذا الاخطبوط الإعلامي الرهيب، الذي يشارك الناس خلواتهم، وينفذ إليهم من خلف كل جدار.

وثانيها كلام قاله سياسي لبناني. ابن بيت عرف بحضوره المميز في الحياة السياسية اللبنانية. وربما لذلك ترك نفسه يقول ما لم يقله أحد من رصفائه، تعليقاً على الحدث نفسه وبعض ما يتصل به. إذ قال ما مؤداه: إن اعتراف الفاتيكان بـ (إسرائيل) هو تحالف بين الصليبية والصهيونية، مضادة للإسلام والعروبة، وطليلة لخطر جديد مقبل عليها. ولكننا لا نرى فيه ما يستحق أن يحسب خطراً مستقلاً بذاته. بل نراه حلقة في سلسلة هذا التطويق اليهودي للغرب، ابتغاء إخضاعه وتسخيره لمآربه. فيقاتل به حين يريد قتالاً، ويهول به حين يكفي التهويل. ويبتزه في كل حال. وغني عن البيان أننا حتى الآن، سواء نظرت إلينا بوصفنا مسلمين، أم بوصفنا عرباً، مرمى هذا التسخير. ولكن خطره، أي خطر الاعتراف علينا ليس إلا نصلاً واحداً من هذه النصال التي تتكسر كل يوم على جسدنا الدامي.

في رأينا أن الخطر الأكبر هو على الكنيسة نفسها.

أما ثالثها فكلام قاله على روس الأَشهاد كاهن مسيحي رفيع المقام. نقلته وسا ثل الإعلام بالصوت والصورة. خلاصته: أن الإيملن الذي قبله من غيرنا بالسيد المسيح هو بالإيملن بأنه ابن الله. يعني أن من آمن به نبينا فلن يقبل منه. وجلي أن ليس في هذا الكلام بنفسه جديداً علينا. ولكنه أخذ معناه عندي من جوء التأمل في مغزى ومعنى اعتراف الفاتيكان بـ (إسرائيل) فساءلت نفسي، وكأني أسائل صاحبنا: حسناً، ولكن ما شأن من لا يعترف بالسيد لمسيح عيسى بن مريم أصلاً. لا إبناً لله، ولا نبينا ولا حتى مجرد إنسان. والجواب، وإين يكن معلوماً من مفهوم الموافقة، كما يقول أهل العربية، ولكن الكلام شيء، وابن عمه شيء آخر. أن تقول كل الحقيقة شيء، وأن تترك الناس ليفهموا بأنفسهم – وقد لا يفهمون – بعض لوازم كلامك شيء آخر.

الاعتراف حين يتوجه من دولة عادية إلى مثلها من دول الأرض فإن له مفعولاته القانونية مما تنسطة وتحدده القوانين الدولية. ونعني بالدولة العادية، الدولة بالمفهوم السياسي. الذي يتقوم بالأرض والإنسان: الأرض المرسومة الحدود، وما يبحق بها من سيادة. والإنسان – المواطن، وما يتصل بهذا الوضع من قفوانين تحدد مفهوم المواطنة. بهذا المعنى فإن الفاتيكان ليس دولة عادية أبداً. نفهم أن الفاتيكان هو (دولة) عقيدة. ليست تمثل وطناً ولا مواطناً، بالمعنى السياسي لكلمتي وطن ومواطن.

(حدودها) المسيحية الكاثوليكية، و (مواطنها) الانسان المسيحي الكاثوليكي. وأنا كمسلم أتفهم هذا جيداً وبسهولة. ذلك أنني في اساس معتقدي أحمل مفهوماً مشابهاً للوطن والمواطن. والقرآن يعبر عما فيه من عقيدة وشريعة بـ (حدود الله). ومن هذا المنطلق في التفكير فإنني لا أجد صعوبة أبداً في فهم موقف الكاهن الرفيع المقام، بل وحتى طريقته الحادة في التعبير عنه. لقد كان الرجل يدافع عن (حدوده) هو الآخر. وله ملء الحق بذلك. وبذلك هو ما أهل كلماته للاندماج في هذا السياق من التأملات.

للأسباب نفسها يبدو اعتراف الفاتيكان بـ (دولة إسرائيل) عصياً على الانسجام فيما نتوقعه من دولة المسيح وتفريطاً في السيادة التي عليها أن تحميها. ومباركة لتسلل سيء النية إلى حيث قلب المسيحية. إلى المسيح نفسه.

في العمق، وبحسب التأويلات التلمودية، فإن (إسرائيل) هي دولة المسيح الموعود. الذي سيحكم العالم من على كرسي أبيه داود. وظيفتها الحضارية عندهم طي المراحل ما بين داود والمسيح الآتي، وشطبها من التاريخ والحضارة والثقافة. وغني عن البيان أن هذا يعني، في رأس ما يعني، أن المسيح مسيحننا، مسيح الإسلام والمسيحية، كذاب ليس ابن الله كما تقول العقيدة المسيحية. وليس روح الله كما تقول العقيدة الإسلامية. بل ابن يوسف النجار من امرأة اسمها مريم.

هل تقبل المسيحية الكاثوليكية، ورأس المسيحية الكاثوليكية، هذا المشروع؟ أم أن الضجيج الصهيوني، الذي يتجاوب صداه في أنحاء الدنيا، قد نجح في التغطية على حقيقة المشروع سهم يتجه إلى قلب المسيحية.

لقد أعلن السيد المسيح أنه جاء لبني الهيكل، هيكل سليمان، بالروح. وهذه كلمات ذات مغزى كبير جداً، تلخص المشروع الذي حمله روح الله البشرية، عاملاً على قاعدة نقل السعي الإنساني للتسامي والتقدم من خارج الإنسان إلى داخله. وطبعاً كان لا بد من أن يخترق المشروع الذات اليهودية والذاكرة اليهودية التاريخية، بما عرف عنها من ميل سلطوي وإغراق في الذاتية. ولذلك اتجه خطاب السيد المسيح إلى ما يرى فيه اليهود رمزاً لتاريخهم المجيد الضائع داخلياً إياهم ضمناً إلى التحرر من ذاتيتهم وتاريخهم الخاص. والانطلاق نحو الرحاب الروحية، حيث القيم الإنسانية العميقة والمشاركة.

إن مجرد قيام (دولة إسرائيل) هو بنفسه إعلان صارخ في وجه إعلان السيد المسيح. وكان من المعلوم أن هذا الاعتبار، وما يتصل به في رأس ما وقف دون إعلان الفاتيكان الاعتراف بالدولة اليهودية خلال السنوات الخمس والأربعين الماضية. فضلاً عن اعتبارات رعوية وإنسانية تتعلق بتشريد سكان فلسطين الأصليين، ومنهم عشرات ألوف المسيحيين.

واليوم نسمع أصواتاً تردد أن الفاتيكان حين انقلب على موقفه التاريخي كانت تتصرف كدولة. أي من دون اعتبار خصوصيتها العقيدية والتمثيلية. وهو اعتذار يدل على أن قائليه لا يهتمهم في قليل ولا كثير ما ومن تمثله الدولة المسيحية. وأنهم في سبيل اختراع عذر كيفما كان، سهل عليه الفصم ما بين (الدولة) و (المسيحية)، في مركب لا مبرر لوجوده إلا في ازدواجيته، وخصوصاً مسيحيتها. ونحمد الله أن هذا التبرير لم يصدر عن مسؤولين فاتيكانيين. وإلا لكانت المفارقة أكبر.

تذكرت في سياق هذه التأملات، رجلاً عرفته في ماضي الأيام. تحاورنا كثيراً، واختلفنا في أشياء، واتفقنا على أشياء. ويجزني الآن أن الزمان لم يتح لتلك المعرفة أن تتحول إلى صداقة تمتلك كافة عناصرها. فقد كان ممن أصبنا به في حربنا اللئيمة العبيثة. التي نسأل الله أن تكون قد غدت ذكرى، مهما تكن أليمة. ذلك هو كمال يوسف الحاج. رجل الفلسفة، والمسيحي المخلص والعميق الإيمان. نذير الخطر الصهيوني على المسيحية. الذي دفع حياته ثمناً لتحليلاته العميقة وإيمانه القوي.

لو كان كمال يوف الحاج حياً بيننا اليوم. لكان حتماً رابع أولئك الثلاثة، ولقال كلمة صدق، ولارتفع بها صوته عالياً.